المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية: ISSN : 2716-7984
المجلد 02 ، العـدد: 01، جوان 2020

دور المثل الشعبي الجزائري في مقاومة المحتل الفرنسي

The role of the Algerian popular proverb in the resistance to the French occupier

د. فارس كعوان[1]

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 –الجزائر

ملخص: بعد احتلال الجزائر انتهجت السلطات الفرنسية سياسة قمعية للقضاء على كل أشكال المقاومة، وفرضت قوانين تعسفية على السكان،كما تم زرع العيون في كل مكان لكتابة التقارير ونقل كل تحركات الناس.

ومعمرور الزمن صار الحديث حتى في المواضيع العامة من الأمور الممنوعة التي يعاقب عليها القانون، كما مُنعت التجمعات دون سبب، ولم يعُد النّاس يميلون لأي حديث ينتهي بهم في النهاية لغياهب السجون والمعتقلات.

وفي هذا الجو المشحون بالرعب لجأ البعض إلى توظيف التراث الشعبي الجزائري بطرق ذكية، فانتشرت القصص على لسان الحيوانات في دلالات رمزية عن المحتل وأعوانه، كما وظّف الناس الأمثال الشعبية ذات الدلالات القوية للسخرية من الاحتلال ومن يساعده.

الكلمات المفتاحية: المثل الشعبي/ الجزائر/ المقاومة/ الاحتلال الفرنسي.

Abstract: After the occupation of Algeria, the French authorities adopted a repressive policy to eliminate all forms of resistance and imposed repressive laws on the population, pawns being planted everywhere to write reports and verify all movements of people.

And over time, discussions became, even on general topics, prohibited matters punishable by law, because rallies were prohibited without reason, and people no longer tended to talk about everything that ended up

[1] – اسم الباحث المرسل: د.فارس كعوان، جامعة سطيف2

البريد الإلكتروني:

throwing them out. prisons and detention centers.

In this horrible atmosphere, some resorted to the intelligent exploitation of Algerian folklore. Stories have spread over the language of animals whose meanings are symbolic and present the occupier and his assistants, and people have used popular proverbs with strong overtones to ridicule the occupation and its assistants.
Keywords:Popularproverb / Algeria / resistance / French occupation

مقدمة:

تعددت أشكال المقاومة اللفظية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي، معبرة عن رفضها لكل أشكال الاستعمار والهيمنة والظلم، فقد لاحظ الفرنسيون من خلال جمعهم للتراث الشعبي الشفهي أن المجتمع الجزائري رفض الوجود الاستعماري وقاومه منذ البداية، ووظف في سبيل ذلك أشكالا مختلفة من التراث الشعبي منها القصة الشعبية واللغز والمثل الشعبي هذا الأخير الذي يتميز بمعانيه القوية وكلماته البسيطة.

وسنحاول في هذه الورقة العلمية أن نبين مختلف مظاهر توظيف هذا الشكل من المقاومة للمحتل وأعوانه خلال الحقبة الاستعمارية التي دامت أكثر من قرن لم يستكن فيها المأثور الشعبي يوما عن المقاومة.

1- مفهوم المثل الشعبي ومميزاته:

المثل الشعبي جملة بلاغية موجزة منغمة في الغالب، مقفلة لغويا، مجهولة المصدر في الغالب، ذات طابع تعليمي، تصاغ في أسلوب شعبي يسمو على الكلام اليومي العادي[1].

وهو عبارة عن تسجيل لفظي في جمل قصيرة لبعض ما مرّ به الإنسان من أحداث استخلص منها مواعظ وعبر، ورغب في تصديرها للناس للانتفاع بها، وهو شكل

[1]- علي أحمد محمد العبيدي: من مستويات الدلالة اللغوية في المثل الشعبي الموصلي، مجلة دراسات موصلية، ع 14، نوفمبر 2006، ص 40.

من أشكال التعبير يعكس خلفية تاريخية، وخبرة فئة من المجتمع، من خلال مختلف الممارسات والتجارب الحياتية، وهي خبرة اكتسبها الإنسان من خلال عملية إدراكية جماعيةتخرج به من إطار التجربة الذاتية إلى مجال الخبرة الجماعية التي تُعبّر عن فكر ووجدان الجماعة.[1]

وهو أيضا خلاصة تجارب وحصول خبرة، يحتوي على معنى يصيب التجربة والفكرة في الصميم، كما أنه يتميز بالإيجاز وجمال البلاغة.[2]

يُعدّ المثل الشعبي جنسا أدبيا متميزا لما له من خصوصيات وقدرة على حفظ وترجمة أفكار وذهنيات أفراد المجتمع، فهو الوعاء الذي تصب فيه ثقافة المجتمع من عادات وتقاليد وأعراف ومعتقدات.

وقد أهّلته هذه الخصوصيات للشيوع والتداول بين الأوساط الشعبية، ممّا ساعده على الانتشار، فتعدّدت وظائفه نتيجة لذلك، وانتقل دوره من التسلية والترفيه إلى التخفيف عن آلام البؤساء والمسحوقين، بلغة ساخرة ومُتهكّمة من أوضاع العصر، وذلك عبر توظيف ألفاظ سهلة التداول بين مختلف شرائح المجتمع، وحمله لبعض الإيحاءات والإيماءات الرمزية .

وإن كانت الإدارة الكولونيالية في الجزائر قد كبّلت المجتمع بمجموعة من القوانين الرّدعية التي تراقب كل حركاته وسكناته، فإن المثل الشعبي صار ملاذا للبوح بمكبوتات المجتمع، والتعبير عن مقاومةالسياسة الاستعمارية في مختلف مظاهرها وأبعادها.

حمل المثل الشعبي على عاتقه البوح في خطاب مختصر عن رفضه للوجود الاستعماري منذ البداية، كما عبّر عن رفضه للتعاون مع الإدارة الكولونيالية وأعوانها، ونبذ كل مظاهر الاتصال معها، وسخر المثل الشعبي من الواقع بلغة بسيطة وواضحة مما جعله متنفسا للفئات المضطهدة تلجأ إليه كآلية للتعويض من الحرمان والقهر.

[1]- حسين رشوان: الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1993، ص 41.

[2]- نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1974، ص 139.

2- الدعوة للمواجهة العسكرية مع المحتلمن خلال المثل الشعبي:

كان الخطاب الشعبي حاضرا منذ اللحظة الأولى للمواجهة مع المحتل بشتى أبعاده ليكون إلى جانب السلاح محفزا للناس على الممانعة، ويمكن في هذا الإطار الإشارةإلى القصيدة الشعبية التي ذاع صيتها في تلك الحقبة ومطلعها: "**راني على الجزاير يا ناس حزين**" للشيخ عبد القادر المازوني.[1]

ولم يكن المثل الشعبي غائبا عن هذه المناسبة، فقد أدرك الرواة الشعبيونمنذ البداية مدى فاعليته وسرعة انتشاره، فانطلقوا يبثّونه بين الناس لزيادة قوة الممانعة بينهم، وتحفيزهم على المجابهة العسكرية.

وظهرت مجموعة من الأمثال الشعبية التي لم يُعرف قائلوها، لكنها كانت كلها تدعوا إلى مقاومة الاحتلال حتى الرمق الأخير منها:" **الجهاد في الكفرة ولو كان بالخسارة**"[2]و" **العدو ما يولي صديق والنخالةما تولي دقيق**"[3] و"**دافع على الروح حتى تروح**"[4] و"**المومن بسلاحو**"[5].

والمتمعن في هذه الأمثال الشعبية يجدها تدعولحمل السلاح،وعدم الاستكانة أمام المحتل للدفاع عن الأرض والعرض، وذلك عبر خطاب بسيط واضح، وسريع الانتشار في الأوساط الشعبية، ولا يمكن لسلطات الاحتلال أن تمنع انتشاره مهما حاولت.

ودعت بعض الأمثال الشعبية لعدم طاعة العدو لأن" **طاعة العدو هلاك**" [6] مثلما جاء في أحد الأمثال، كما أننوايا العدو غير صافية، وهو ما جاء في مثل آخر:" **ماشفتفي الشتا ليل دافي ولا في العدوقلب صافي.**"[1]

---

[1]-Desparmet, Joseph: L'entré des français par cheikh Abdelkader,in Revue africaine, n° 1930, pp 229_. 236

-[2]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، دار فليتس، المدية، الجزائر، 2013، ص 200.

-[3]المرجع نفسه، ص 394.

-[4]مسعود جعكور: حكم وأمثال شعبية جزائرية، دار الهدى،عين مليلة، الجزائر، 2012، ص 141.

-[5]المرجع نفسه، ص 331.

[6]- محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 371.

3- الاعتزازبالوطن في خطابالمثل الشعبي:

إذا كان مفهوم الوطن ملتبسا وغير واضح في الفترة التي سبقت الاحتلال، ولم يتعد نطاق القبيلة أو المدينة في غالب الأحيان، فإن العامل السياسي ممثلا في انهيار السلطة التركية وانسحاب آخر ممثليها، وترك المجتمع الجزائري وحيدا دون قيادة لمجابهة الوافد الأوروبي الجديد، هذا العامل كان مُحفّزا على ذيوع فكرة الوطن والوطنية ومغذيالها.

وفي هذا الإطار نجد أن خطاب المثل الشعبي قد تغنّى بحب الوطن والانتماء إليه حتى في أحلك الظروف، وفضّله على الحياة الرغيدة في بلاد أخرى، ويمكن أن نورد هذه الأمثال التي تكشف بعمق عن حب الوطن، والاعتزاز بالانتماء إليه في الحقبة الكولونياليةومنها:"**وطني وطني ولا الحرير والقطني**"[2]أو "**وطني وطني ولو كان رقادي في القطني**"[3]

وفي المغرب الأقصى هناك مثل شبيه به هو :" **الحريقة بالنار ولا الخروج من الاوطان**" الذي أصبح شعارا للوطنيين يرددونه كلما داهمهم عدو في قريتهم أو مدينتهم يريد إجلاءهم عنها لاحتلالها فهم يتّخذون هذا القول مبدأهم في الصمود إلىآخر رمق[4].

كما وظّف المثل الشعبي خطابا على لسان بعض الحيوانات مثل هذا المثل القائل:" **أمقرقر**[وهي الضفدعة] **تقول جوعي في بطني ولا نفارق وطني**."[5]

وجاء أحد الأمثال مُنبّها لأهميةرابطة حب الوطن بين الناسالتي تتفوق حتى على رابطة القرابةفقال:"**خُوي من الوطن خِير من خُوي من البَطن**"[1] لأن المتعاونين مع العدو

---

[1]-المرجع نفسه ، ص 554.

- [2]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 350.

[3]-KadaBoutarene: Proverbes et dictons populaires algériens, office des publications universitaire, Alger, sd, p 228.

-[4]عبد الهادي التازي : الأمثال من خلال التعامل السياسي، ضمن كتاب الأمثال العامية في المغرب تدوينها وتوظيفها العلمي والبيداغوجي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، سلسلة الندوات الرباط، دجنبر 2001، ص 393.

[5]_KadaBoutarene: Proverbes et dictons populaires , p 65.

لا خير فيهم حتى ولو كانوا أشقاء ، والشقيق الحقيقي في هذه الحالة هو الأخ في الوطن و الوطنية.

ونتيجة اضطرار عدد من الجزائريين لترك أوطانهم،والهجرة لبلاد أخربهروبا من الوضع البائس والقوانين الرّدعية الفرنسية، وسعيا لضمان قوت عائلاتهم[2]، نبّه خطاب المثل الشعبي إلى ضرورة العودة إلى أرض الوطن" **كل غريب لبلادو راجع**[3]" و" **اللي كبرو أولادو يرجع لبلادو**."[4]

4- المثل الشعبي والدعوة للتمسك بالدين زمن الاحتلال:

إلى جانب الاختراق العسكري، عمل المحتل على اختراق المجتمع من الجانب الديني عبر تشجيع المبشرين على الاستثمار في الأرض لإيجاد فئات مدجّنة ترتد عن دينها وتلتحق بركب" الرومي" وحضارته اللاتينية.

حث خطاب المثل الشعبي على التمسك بالدين في تلك الظروف العصيبة، على اعتباره صمامالأمان في المواجهة مع العدو، وعامل اللحمة بين فئات المجتمع، فقد جاء هذا الخطاب منبّها لأفراد المجتمع بأهمية العامل الديني،إذ كانت سمة التدين من أبرز سمات الشخصية الجزائرية في تلك الحقبة، كما تدل عليها عديد الشواهد الثقافية، والصمود في وجه كل محاولات التنصير التي استهدفته طوال الفترة الكولونيالية.

-[1]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 248.

-[2]عمار بوحوش: العمال الجزائريون في فرنسا دراسة تحليلية،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1979، ص 51.

-[3]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 490.

[4]-KadaBoutarene: Proverbes et dictons populaires , p 64.

يظهرالتعلق الشديد بالدين في تلك الحقبة في حرص الناس على بناء المساجد والمدارس القرآنية رغم حالة الشظف في العيش، والبؤس الاجتماعي الذي طبع حالةغالبية أفراد المجتمع.[1]

وظهرت مجموعة منالأمثالتحث على التمسك بالدين مهما كانت الظروف ومنها: "**ابحثعلى دينك حتيقولو هذا مهبول**" أو " **إذا اختلطت الأديان احكم دينك**"[2]

5- صورة النصارى واليهود في خطاب المثل الشعبي:

منذ استيلاء المحتل الفرنسي على الأرض لم يتوان خطاب المثل الشعبي عن الدعوة لممانعته وذم شتى سلوكاته، والتهكم منه، ومن ذلك مثلا هذا المثل القائل:" **عند النصارى التقرقيب وقلة النقيب**" بمعنى أنالأوروبيين تسمع عند تناولهم الطعام كثيرا من ضوضاء الملاعق والسكاكين لكن طعامهم قليل[3].

كما جاء خطاب المثل الشعبي ليمنع الأخذ عن النصارى والاحتكاك بهم" **اللي ياخذ من غير ملتو يموت بغير علتو**".[4]

وفي بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر راج هذا المثل الشعبي القائل:" **وين مشاو دراهم كميا النصارى؟ قالوا: في العناد والخسارة**" وكان يُعتقد آنذاك أن لا جدوى من تخصيص الفرنسيين لمبالغ طائلة لاحتلال الجزائر، لأن ذلك حسبهم ضرب من الجنون، وكان المعتقد الشعبي يروج أن بلاد الجزائرية محمية بالله وأن كل معتد عليها لا محالة سيعود خائب الوفاض[5].

- [1] لخضر حليتيم: الأمثال الشعبية الجزائرية بين التأثر والتأثير دراسة تناصية دلالية، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، ط1:، 2017، ص 267 – 268.
- [2] مسعود جعكور: حكم وأمثال شعبية جزائرية، مرجع سبق ذكره، ص 9.
- [3] محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، مرجع سبق ذكره، ص 406.
- [4] المرجع نفسه، ص 115.
- [5] المرجع نفسه، ص 639.

وإذا كان ذم " الرومي النصراني"بديهيا في خطاب المثل الشعبي على اعتباره وافدا محتلا غير مرغوب فيه في بلاد إسلامية لا تزال تحن للخلافة العثمانية، فإن ذم اليهود في خطاب المثل الشعبي الجزائري، وهم ضمن التركيبة السكانية المحليةيدعو للتساؤل عن خلفياته.

يلاحظ المتأمل في هذه القضية أن خطاب المثل الشعبي في بداية الاحتلال لم يُفرق بين اليهود والنصارى "**اليهود في السفود والنصارى في الصنارة**"[1] وذلك بسبب الظروف التاريخية التي جعلت عددا كبيرا من يهود الجزائر ينحازون كليالإدارة الاحتلال منذ اليوم الأول والتشفي من باقي السكان، رغم أن هؤلاء اليهود كانوا يعاملون باحترام سواء من السلطة العثمانية أو حتى من مختلف الشرائح الاجتماعية[2].

ولعل هذا الانقلاب في الأدوار الذي بينته بعض العناصر اليهودية، واستثمارها في المناخ السياسي الجديد هو ما جعل خطاب المثل الشعبي يكون حادا معهاأكثر من النصارى الأوروبيين، فقد وجدنا أن مدونة المثل الشعبي قد خصصت لليهود خطابا حادا، ومن ذلك مثلا: "**اليهودي يهودي ولو كان على أربعين عرق**[3]" ، وهو مثل يصور عدم الثقة في اليهود حتى لو أسلموا ، ومر على إسلامهم زمن طويل، وهو يُعبّر عن الطباع الخسيسة المتجذرة في عدد من اليهود لأنهم كانوا معروفين بنكث العهود واستغلال الفرص دون أي وازع أخلاقي.[4]

6- صورة المتعاونين مع المحتل في خطاب المثل الشعبي الجزائري:

وظف خطاب المثل الشعبي أسلوب التهكم من الاحتلال وبعض أعوانهكأداة بليغة لإيصال صوته، والتعبير عن ثقافة الرفض لدى شرائح عريضة من المجتمع الجزائري.

-[1] محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 671.

- [2] حمدان خوجة: المرآة لمحة تاريخية وإحصائية على إيالة الجزائر، تعريب تقديم محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017 ، ص 142.

- [3] محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 672.

-[4] عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص 406.

ويمكن أن نوزع هذا الخطاب الرافض على ثلاث شرائح اجتماعية تعاونت مع العدو وقدمت له كل يد العون، لتسهيل عملية الاختراق بشتى مظاهرها، حتى أن الذاكرة الشعبية لا تزال تحتفظ إلى اليوم بذكرى سيئة عن هؤلاء المتعاونين المصنّفين في الفئات التالية:

أ- فئة المتعاونين العسكريين:

وتشمل الجنود والضباط المنخرطين في صفوف قوات الاحتلال، وكانت الإدارة الاستعمارية قد فتحت باب التطوع العسكري للأهالي منذ الأياماالأولى مدركة أن هؤلاء سيحققون لها أهدافا تعجز قواتها الكبيرة عن تحقيقه بفعل الصراعات القبلية وحرب المصالح التي استعرت في تلك الفترة.

ولعل تجربة الجنرال مصطفى بن إسماعيل[1] في الغرب الجزائري خير مثال عن هذا النجاح الذي حققته السلطات الاستعمارية عبر الاستثمار في العنصر البشري المحلي، وتقديم امتيازات كبرى تحفز الأهاليعلى التطوع العسكري، وتزيل كل العراقيل النفسية حتى تسهل عملية الاندماج بين العنصرين المحلي والأوروبي[2].

وجاء خطاب المثل الشعبي رافضا لكل أشكال التطبيع مع المحتل، كما جاء هذا الخطاب في قالب ساخر ومتهكم بكل الأعوان الذين ارتضوا لأنفسهم الانسلاخ عن بني جلدتهم، وبهذا فقد ساهم هذا الخطاب مساهمة فعّالة في خلق جدار عازل بين هذه الفئات" المنبوذة اجتماعيا" وبين مجتمعها الأصلي، وفي هذا الإطار جاء أحد الأمثال

---

[1]- مصطفى بن إسماعيلهو قائد قبائل الدوائر والزمالة في الغرب الجزائري وقد انضم للفرنسيين سنة 1835 وحارب الأميرعبد القادر، وظل وفيا للفرنسيين حتى مقتله في إحدى المعارك، ينظر: إبراهيم مهديد:الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن 19م والرأسمالية الاستعمارية: إشكالية الاندماج الاجتماعي، مجلة انسانيات، ع4، جانفي- أفريل 1998، ص 82.

[2]- محمد بجاوي: متعاونون ومجندون جزائريون في الجيش الفرنسي" 1830 _ 1918، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص 118.

الشعبية منبها لخطر هؤلاء المتعاونين من أبناء الوطن ضد بني جلدتهم " **عدوك بينجنيبك**[1]" أي أن العدو الحقيقي هو الذي يكون من أهلك وبين قومك، وذلك في إشارةإلى الحرقة التي يُحسّها الإنسان من أذىأقرب الناس إليه.

ولعل هذه الخطابات اللاذعة قد ساهمتفي جعل بعض المنتمينلهذه الفئةيراجعونحساباتهم في آخر حياتهم، والعودة لمجتمعهم الأصلي،وهو ما حصل مع أحد المتعاونين المعروف بالكولونيل بن داود صاحب المثل الشهير"**العربي عربي ولو كان الكولونيل بن داود**".

وصاحب هذا المثل هو محمد بن داود المولود سنة 1837 ببورداش بضواحي وهران، وهو ابن السيد محمد بن داود، آغا الدوائر بالغرب الجزائري، بدأ دراسته في المدرسة العربية بمدينة الجزائر، وتقلد رتبا عسكرية متدرجة منذ التحاقه سنة 1855 بالمدرسة العسكرية الفرنسية بسان سير l'école militaire de Saint-Cyrبصفة تلميذ أجنبي، وتخرج منها برتبة ملازم قناصة إفريقيا، ثم ارتقى ملازما أولا سنة 1865، فرائدا سنة 1870 ، ثم قائد سرية chef d'escadron سنة 1876 ، ثم ارتقى مقدماlieutenant colonel سنة 1876 ، وحصل سنة 1877 على الجنسية الفرنسية، ثم ارتقى لرتبة عقيد في كتيبة الصبايحيةالأولى Colonel au 1er régiment de spahis سنة 1888 ومنح وسام الضابط الكبير في جوقة الشرفgrand officier de la Légion d'honneur وحصل في آخر المطاف على رتبة عقيد colonel في الكتيبة الأولى لفرقة الصبايحية الجزائرية سنة 1889 وهي الرتبة التي تقاعد بها.[2]

خلّف الكولونيل بن داود مقولته الشهيرة :" **العربي عربي ولو كان الكولونيل بن داود**" التي راجت في كامل أنحاء القطر الجزائري، وحفظتها الرواية الشعبية، وقصة هذا المثل

[1]- محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 394.

[2]- Dossier de remise de Légion d'honneur de Mohamed ben Daoud, imprimé, 1863.

أن صاحبه أراد المشاركة في أحد الحفلات الراقصة التي كان يقيمها الفرنسيون لكنه رغم تقلده رتبة عسكرية كبيرة لم يُسمح له بحضور تلك الحفلة ممّا جعله يخرج غاضبا ويقول هذا المثل.

وهناك رواية شفهية أخرى مفادها أن صاحب القصة سمح له بالدخول لكن السيدة الفرنسية صاحبة الحفل رفضت مصافحته في الحفل بحجة انه عربي متسخ Sale arabe فخرج مغاضبا من الحفل وقال تلك المقولة المشهورة التي صارت مثلا شعبيا يقال في حالة قيام شخص بتقديم خدمات للغير دون أن يلقى معاملة حسنة تليق به.

وجاء في أحد المصادر الفرنسية أن الكولونيل بن داود بعد إحالته على التقاعد عاد إلى حياته كعربي ومسلم، فأدى فريضة الحج رغم تجنسه، ولبس البرنوس العربي الذي ذاع صيته عند الفرنسيين آنذاك" Le feu burnous du colonel Ben Daoud وأنه احتفظ بالتقاليد الجزائرية حتى أن أحد الموظفين الفرنسيين لما أراد زيارته في منزله في إطار مهمة رسمية اندهش بوجود رجل كبير السن باللباس العربي يخدم حديقته بنفسه، ولا يبدو من مظهره أنه كان عسكريايحمل رتبة عسكرية كبيرة[1].

ب –فئة المتعاونين الإداريين:

شكّلت فئة المتعاونين الإداريين من الأهالي ممثلة في القياد والباشاغوات والشواش مظهرا من مظاهر الصدع الذي أصاب المجتمع الجزائري في فترة الاحتلال، فالدراسات التاريخية تكاد تجمع أن هذه الفئة ساهمت بفاعلية في إطالة عمر الاحتلال،وتوسيع دائرة نفوذه، بل أن الذاكرة الشعبية تحتفظ لهذه الفئة بذكرى أسوا حتى من المحتل ذاته، على اعتبار أنها فئة محلية كان من واجبها الدفاع عن مصالح المستضعفين، لكنها اختارت

[1]- Espé de Metz : Par les colons : l'Algérie aux algériens et par les algériens, Paris, Emile Larose, p 159-160.

الانحياز للمحتل حفاظا على مكاسبها القديمة، حتى أن خطاب المثل الشعبي وصفها بعبارة بليغة موجزة" دينهم على من غلبهم[1]."

وجاء خطاب المثل الشعبي محتقرا لهذه الفئة، داعيا لنبذها وعزلها عن المجتمع بعبارات قوية مثل :" **اقتل الخديم وخلي سيدو**"[2]كما جاء بصيغة أخرىأكثر حدة في بعض الجهات"**اقتل القواد وما تقتلش سيدو**" و "**الخديم يتبع سيدو**"[3].

كما قيل مثل عن المتعاونين مع المحتل و المنخرطين في صفوفه من الذين يتمتعون ببنية قوية لكنهم وظفوها لخدمة العدو وهو:" **بدن وافر وقلب كافر**."[4]

وتحسّر خطاب المثل الشعبي على ذهاب الرجال الحقيقيين من رجال المقاومة ومجيءأشباه الرجال من المتعاونين في قوله" **راحت رجال الهيبة وجات رجال الخيبة**"[5].

وتهكّم خطاب المثل الشعبي بهذه الفئة،ورثىلحالها،ومثالذلك المثل القائل:"**بعد الشيب والكبر لبسولو برنوس أحمر**[6]" والبرنوسالأحمر كان خاصا بفئة القياد التي لم يتوان عن الانضمام لها حتى الشيوخ من كبار السّن طمعا في الجاه والنفوذ.[7]

وحول هؤلاء القياد جاء أحد الأمثال مُعبّرا عن تظاهرهم الكاذب بالتديّن في عبارة بليغة لا تزال تتداولها الألسنإلى اليومهي"**صلاة القياد جمعة وأعياد**"[8] بمعنى أن صلاة هؤلاء في المناسبات فقط،لإظهارأنفسهمأمام الناس دون أي التزام حقيقي بالدين.

- [1]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 272.
- [2]مسعود جعكور: حكم وأمثال جزائرية، ص 34.
- [3]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 237.
- [4]المرجع نفسه، ص 151.
- [5]المرجع نفسه، ص 279.
- [6]المرجع نفسه، ص 156.
- [7]أحمد سيساوي: البعد البايلكي في المشاريع السياسية الفرنسية من فالي الى نابليون الثالث 1838_ 1871، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ المعاصر، جامعة قسنطينة، 2014/2013، ص 108.
- [8]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 357.

ومن بين الفئات التي انتقدها خطاب المثل الشعبي فئة القضاة، فقد نخر الفساد والرشوة النظام القضائي في الجزائر منذ الفترة العثمانية، حيث عبّر الرحالة الجزائري الحسينالورثلاني عن ذلك عند زيارته لمدينة بسكرة في الجنوب الجزائري قائلا:" وقد سمعت أن القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم، وارتشاء لديهم، وكذا في غيرها من عمالة الجزائر[1].

واستمرت صورة القاضي في الذهنية الشعبية مرادفة للمرتشي، وحارم الناس البسطاء من حقوقهم، حتى أنأحد الأمثال التي كانت متداولة في قسنطينة زمن الاحتلال جاء فيها:" **دار القاضي ماهيش صحيحة**"[2] بمعنى أن دار القاضي ليست متينة البناءلكسبه الحرام نظرا لتعامله بالرشوة.

وفي نفس الموضوع جاء خطاب المثل الشعبي منبها لخراب دار القاضي الظالم:" **دار الظالم خربة ولو بعد حين.**"[3]

ولهذا السبب شنّ خطاب المثل الشعبي نقدا لاذعا للقضاة الذين انصهروا في النظام الكولونيالي، ولم يعودوا يُمثّلون العدالة التي تطمح إليها مختلف الشرائح الاجتماعية، فجاء أحد الأمثال معبرا رغم اختصاره عن انعدام العدالة " **الحق غاب بعد عمر بن الخطاب**"[4].

وجاء خطاب المثل الشعبي ناقدا لهؤلاء القضاة مستهترا بأحكامهم في عباراتبليغة، ومن بين الأمثال الشعبية المعبرة بخطاب مضمر عن الفساد هذا المثل القائل:"**إذا عاد**

---

[1]-الحسين الورثلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن شنب، مطبعة فونتانا، الجزائر 1908، ص 111 .

[2]-A .Cherbonneau:Eléments de phraseologie française avec la traduction en arabe vulgaire,Constantine, impGuende1851, p 26

[3]-محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 257.

[4]-المرجع نفسه، ص 225.

القاضي خصيمك غير طبق حصيرك"[1] بمعنى إذا احتكمت للقضاء فإنك لا محالة ستخسر قضيتك.

ودعا خطاب المثل الشعبي إلى الامتناع عن الشكوى للقاضي لأنه لن ينصف الناس، فجاء هذا المثل: " **الشكوى لربي خير من قاضي العرب.**"[2]

وجمعأحد الأمثال في خطاب بليغ عددا من الفئات المتعاونة مع المحتل في مصير واحد:" **القاضيوالعدولوالقايد والشهود في جهنم قعود**"[3].

ج – فئة المرابطين ورجال الزوايا:

شكّلت هذه الفئة نموذجا آخر من نماذج التعاون والتطبيع مع المحتل على حساب الشرائح المسحوقة، فقد رأىمنتسبوهاأن من مصلحتهم الانحياز للإدارةالكولونيالية، والالتحاق بركب الأعيان،وأصحاب المصالح من بورجوازية المدن، حفاظا على مكاسبهم، ومحاولة للاقتيات من المرحلة الجديدة[4].

ونظرا لهذه الصورة السيئة التي بدا بها بعض شيوخ الزوايا، وهذا الموقف المتخاذل والمتواطئ من جانبهم، فقد جاء عدد منالأمثال الشعبية مستهجنامن سلوكات هؤلاء، وكاشفا للدور السلبي لبعضهموذلك في خطاب ساخر من أمثلته: "**إذا كثروا أصحاب السبح ينقطح الربح**"[5] بمعنى إذا كثر أصحاب الزوايا فإن الربح يقل، وهو بهذا يشير إلى ظاهرة التنافس في الحصول على المداخيل من مريدي الزوايا.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 43.

[2]- المرجع نفسه، ص 341.

[3]- المرجع نفسه ، ص 445.

[4]- ينظر في هذا الشأن تراجم بعض شيوخ الزوايا في كتاب أعيان المغاربة وهو باللغة الفرنسية:

-Gouvion, M et E : KitabAâyane el Marhariba , Alger, Fontana 1920.

[5]- مسعود جعكور: حكم وأمثال جزائرية، ص 23.

كما أن المثل الشعبي عبّر عن ثنائية الدور الذي كان يلعبه عدد من شيوخ الزوايا في الحقبة الكولونيالية بقوله: "**مرابط وبوليس**"[1] وهو مثل مختصر لكن دلالته قوية عن صلة رجال الزوايا بالشرطة الفرنسية، فالشيوخ هم مرابطون خلال النهار في زواياهم، وأصحاب تقارير تسلم للشرطة في المساء، وهذا الوضع كان قائما خلال هذه الحقبة الحالكة حيث كانت السلطات الكولونيالية تكلف بعض شيوخ الزوايا بكتابة تقارير دورية عن مختلف النشاطات في مجالات نفوذهم حتى تتمكن من تكوين صورة عن الواقع الأهلي بشتى مظاهره، والتمكن من اختراقه وكبح أي شعور بالرفض.

وتهكّم أحد الأمثالبطقوس الرقص التي كانيثوم بهامريدو بعض الطرق الصوفية في صيغة التعجب:" **قاع ذا الرقصة وما نيش فقير!**"[2] بمعنى كل هذا الرقص الذي أديته ولا أُعتبر من المريدين الصوفيين؟

كما تهكّم أحد الأمثال بقباب بعض المرابطين بعبارة حادة:" **كم من قبة تزار ومولاهافي النار.**"[3]

وجاء مثل شعبي منبها إلى ضرورة مهادنة فئة المرابطين والاحتراز منها نظرا لخطرها" **كيالمرابطبوس راسه وباعده**"[4] أي كالمرابط قبّل رأسه وابتعد عنه.

7– ذم زمن المحتل وتدنى المستوى المعيشي خلاله في خطاب المثل الشعبي

من ضمن مجالات اشتغال خطاب المثل الشعبي ذم زمن المحتل بشتى العبارات الدالة على عدم الرضى وانتظار ساعة الفرج للثورة عليه، كما جاء خطاب المثل الشعبي واصفا حالة البؤس التي وصل إليها المجتمع الجزائري، والتي مست مختلف الشرائح الاجتماعية.

---

[1]– محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 364.

[2]-KadaBoutarene: Proverbes et dictons populaires algériens, p 266.

[3]-Ibid, p139.

[4]– جوزيف ديسبارمي: كتاب الطريق المستقيمة لتعليم لغة العامة، مطبعة السيد جوردان، الجزائر، 1907، ص 155.

ومن الأمثال الشعبية التي ذمتالمحتل وزمانه هذا المثل :" **الله لا يعطي دولة للقندولة**"[1]والقندولة عشبة شوكية تنبت في الجبال، وهي كناية عن تولّي أرذل الناس لمناصب إدارية في الحقبة الكولونيالية،وجاء أحد الأمثال ليصبّ في نفس المعنى " **الوقت راه تقلبوالحمار ولّى على العود يجلّب**"[2] ومعناه تغيّر الأدوار في الحقبة الكولونيالية، وتولّي السفلة مهمة الإشراف على المجتمع.

كما جاء خطاب المثل الشعبي مُعبّرا تعبير ا بليغا عن حالة البؤس الأهلي:" **العام اللينقول نشريفيه الكابوس نبيع فيه البرنوس**"[3]ومعناه أنالسنة التي يقول فيها الناسأن ظروفهم ستتحسن، و يتمكّنون من شراء الكابوس" أي البندقية" يجدونهاأسوأ من سابقتها، فيضطرون لبيع أثمن ما عندهم وهو البرنوس الذي يرتدونه،وهناك مثل آخرأكثر تعبيرا وهو" **عُمرك يا خمّاس الكرموس ما تشري برنوص**"[4].

والخمّاس شخص يعملبجهده في أرض شخص آخر مقابل نسبة الخُمس من المحصول عند جنيه، ونظام الخماسة نظام زراعي استغلالي كان معروفا خلال الحقبة الكولونيالية[5]، وأما الكرموسفهو التين، وجاء المثل بليغا في هذا المعنى،و ذلكأن خمّاس الكرموس هو الأفقر بين الخماسين الآخرين، فخمّاس الأراضي يحصل على الأقل على محصول زراعي من القمح والشعير يُعينه على مواجهة نكبات الدهر، أما خماس الكرموس فلا يحصل إلاعلى هذا المحصول الذي يستهلكه في فترة قصيرة ولا يعينه أثناء الأزمات.

ورغم الظروف البائسة التي كان يعيشها غالبية أفراد المجتمع الجزائري فقد دعا خطاب المثل الشعبي إلىالاعتزازبالنفس، وعدم الخنوع للمحتل مهما كانت المغريات، ومن

-[1]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 440.

[2]-KadaBoutarene: Proverbes et dictons populaires algériens, p 21.

[3]- Ibid, p.14

[4]-Ibid, p49.

[5]-Georges Rectenwald : Le contrat de Khammessat dans l'Afrique du Nord, Paris, E.Pedoneediteur, 1912, p . 26

ذلك مثلا:" **أوقية حرمة ولاقنطار مال**"[1] و " **الحر حر ولو مسه الضر**"[2]و " **رقاد الجبانة ولا معيشةالهانة**[3]" بمعنى الموت أفضل من حياة الهوان، وجاء بصيغة بليغة جدا هي" الحرية مع القلة خير من الكثرة مع الذلة،[4] كما جاء يدعو للحفاظ على النفس أبية " **نفس فايشة خير من كرش عايشة**"[5] ومعناه روح أبية خير من بطن ممتلئ وصاحبه مذلول في كنف الاحتلال.

8- محاولة الإدارةالكولونياليةتوظيف خطاب التطبيع في المثل الشعبي الجزائري:

لم تكن الإدارة الكولونيالية في الجزائر تجهل الأثر الذي تتركه أشكال التعبير الشعبي في تغذية الشعور بالذات ونبذ المحتل، والنأي عن أي شكل من أشكال التطبيع معه، حتى أن الخطاب الشعبي حينهادأب على وسم المحتل بالنجس الذي نهى الشرع عن التعامل معه.

ولم تجد تلك الإدارة من بد لمد جسور التواصل مع المجتمع الأهلي سوى تشجيع بعض أعوانها على نشر بعض الأمثال المحفزة على التطبيع معها، لإزالة الجدار العازل، وإذابة الجليد الذي ميّز طابع علاقة المحتل بالمجتمع الجزائري.

و انتشرت بعض الأمثال التي تدخل في هذا الباب منها: " **الخدمة مع النصارى ولاالقعادخسارة**"[6] بمعنى أن العمل في خدمة الفرنسيين أفضل من البطالة، وهو ما يخدم توجّهات الإدارةالكولونيالية.

-[1]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 142.

-[2]المرجع نفسه، ص 217.

[3]- المرجع نفسه، ص 292.

[4]- المرجع نفسه، ص 220.

[5]-KadaBoutarene: Proverbes et dictons populaires algériens, p.121

- [6]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 345 .

وجاء خطاب هذا المثل متهكما من العرب وأسلوب حياتهم "الوضيع" ونسوق هنا عينة منه جاءت في صيغة ذم للعرب وسلوكاتهم:" **العرب جرب ما يتقرب**"[1]مثلا وهو يقال لتحقير العرب ومغبة مخالطتهم.

كما حاولت بعض الأمثال تقديم صورة بيضاء عن اليهود بمدحهم وإظهار بعض الصفات الجيدة فيهم ومنها: " **اليهود هنود**"[2]وهو يدل على انتشار المعارف العلمية ودقة الصنعة لدى طائفة اليهود مثلهم مثل الهنود، كما جاء الخطاب مادحا لليهود المتمسكين بدينهم" **يهودي خالص خير من لعّاب الأديان**"[3]أو "**يهودي سرسو ولا لعّاب الأديان**"[4]وسرسو اسم منطقة في الغرب الجزائري.

كما جاءت بعض الأمثال مُتهكّمة من سلوكات العربي وداعية لاستئصاله:" **العربي اقتلهقبل مايتكلّم**"وذلك أن كلامه بليغ، ولو أتيحت له فرصة الدفاع عن نفسه أمام القضاء الفرنسي لتمكن دون محام من إثبات حقه.[5]

وصيغت بعض الأمثال الشعبية بصيغة تعكس معناها كما جاء في أصل المثل ، فقد وجدنا أن المثل القائل: " **رقاد الجبانة ولا معيشة الهانة**" الذي سبق وأن ذكرناه قد جاء هذه المرة في خطاب التطبيع معكوسا ويحمل معنى مناقضا تماما،فجاء بالصيغة التالية:"**معيشة الهانةولا رقاد الجبانة**"[6] بمعنى أن حياة البؤس أفضل من الموت.

ومما يلاحظ عن هذا الخطاب أنه لم يلق الرواج الذي توقعته الإدارة الكولونياليةوأعوانها، لأنه كان خطابا لم يثبت فاعليته، وكان آنيا ومصلحيا، لم تكن له مصداقية في ظل أسلوب التعسف الذي تعاملت به السلطات الكولونيالية مع المجتمع، وزاد

---

[1]- المرجع نفسه، ص 395.

-[2]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب ، ص 672.

[3]- المرجع نفسه، ص 672.

[4]-KadaBoutarene: Proverbes et dictons populaires algériens, p129.

-[5]محمد بن أبي شنب: أمثال الجزائر والمغرب، ص 395.

[6]- المرجع نفسه، ص 586.

من نفور هذا الأخير من كل أشكال التطبيع، واحتضان خطابات الممانعة التي تبنّتها مختلف الشرائح الاجتماعية حتى قيام الثورة التحريرية وطرد المحتل نهائيا من الأرض.

خاتمة:

من خلال دراستنا التي حاولنا فيها تسليط الضوء على خطاب الممانعة في المثل الشعبي الجزائري خلال الحقبة الكولونياليةتوصلناإلى أن خطاب المثل الشعبي الجزائريشكّل أحد الخطابات التي تميزت ببلاغتها ودقة تعبيرها رغم إيجازها وبساطتها، وقدمتالأمثال الشعبية الجزائريةصورة أخرى من صور الممانعة لدى المجتمع الجزائري للسياسة الكولونيالية في شتى مظاهرها.

وكان خطاب المثل الشعبيخطابا ناقدا لأوضاع الفترة، ونححفي اختراق كل الحواجز التي وضعها المحتل بصفته خطابا شعبيا لا يمكن التحكم فيه.

اعتُبر هذا الخطاب ملاذا للفئات المنبوذة والمسحوقة في المجتمع الجزائري تُعبّر من خلاله عن آلامها وأحلامها دون قيود.

أدركت سلطات الاحتلال أهمية خطاب المثل الشعبي كشكل من أشكالالمقاومة فحاولت أن تكبح جماحه، ولما عجزت حاولت من خلال بعض أعوانها تكوين خطاب ممانع يدعو للتطبيع مع المحتل، وتبييض صورته.

ببليوغرافيا البحث:

المراجع باللغة العربية:

-إبراهيم، نبيلة: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1974.

- بجاوي،محمد: متعاونون ومجندون جزائريون في الجيش الفرنسي" 1830 _ 1918، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.

-بوحوش، عمار: العمال الجزائريون في فرنسا دراسة تحليلية،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1979.

-التازي، عبد الهادي: الأمثال من خلال التعامل السياسي، ضمن كتاب الأمثال العامية في المغرب تدوينها وتوظيفها العلمي والبيداغوجي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، سلسلة الندوات الرباط، دجنبر 2001.

-جعكور،مسعود: حكم وأمثال شعبية جزائرية، دار الهدى،عين مليلة، الجزائر، 2012.

-حليتيم، لخضر: الأمثال الشعبية الجزائرية بين التأثر والتأثير دراسة تناصية دلالية، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، ط1:، 2017.

-خوجة،حمدان: المرآة لمحة تاريخية وإحصائية على إيالة الجزائر، تعريب تقديم محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017 ، ص 142.

-ديسبارمي،جوزيف: كتاب الطريق المستقيمة لتعليم لغة العامة، مطبعة السيد جوردان، الجزائر، 1907.

- رشوان ،حسين: الفولكلوروالفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1993.

- سيساوي،أحمد: البعد البايلكي في المشاريع السياسية الفرنسية من فالي الى نابليون الثالث 1838_ 1871، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ المعاصر، جامعة قسنطينة، 2014/2013.

-بن شنب، محمد: أمثال الجزائر والمغرب، دار فليتس، المدية، الجزائر، 2013.

-العبيدي،علي أحمد محمد: من مستويات الدلالة اللغوية في المثل الشعبي الموصلي، مجلة دراسات موصلية، ع 14، نوفمبر 2006.

-مهديد،إبراهيم :الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن 19م والرأسمالية الاستعمارية: إشكالية الاندماج الاجتماعي، مجلة انسانيات، ع4، جانفي- أفريل 1998.

-الورثلاني، الحسين: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن شنب، مطبعة فونتانا، الجزائر 1908.

المراجع باللغة الاجنبية:

- Anonyme,Dossier de remise de Légion d'honneur de Mohamed ben Daoud, imprimé, 1863.

-Boutarene,Kada: Proverbes et dictons populaires algériens, office des publications universitaire, Alger, sd.
- Cherbonneau:Eléments de phraseologie française avec la traduction en arabe vulgaire,Constantine, impGuende1851.
-Desparmet, Joseph: L'entré des français par cheikh Abdelkader,in Revue africaine, n° 1930.
- Metz ,Espé de : Par les colons : l'Algérie aux algériens et par les algériens, Paris, Emile Larose.
-RectenwaldGeorges: Le contrat de Khammessat dans Pedoneediteur, 1912.l'Afrique du Nord, Paris, E